ورقات تاريخية

عن حياة البربر الدينية والخلقية في المغرب العربى

د / على عبد السلام سيد أحمد
جامعة الأزهر — فرع البنات
كلية الدراسات الانسانية

أولا : الجانب الدينى :

يتألف دين البربر فى العصور القديمة من عدد من العقائد المحلية يتوافق وانقسام البربر الى قبائل والمعبودات التى كانوا يعبدونها — والتى كانت من غير شك — من الأشياء الطبيعية كالكهوف والصخور والينابيع والأنهار والجبال — (كجبال الأطلس) والأجرام السماوية كالشمس والقمر وبعض الكواكب الأخرى .

على أن تقديس البربر لهذه الأشياء لا نزال نلمس آثاره فى بعض خرافاتهم[1] — بين القليل منهم — والبربر يدينون بديانات مختلفة ذلك أنه « حين أقبل العرب على المنطقة وجدوا تعددا فى المعتقدات الدينية واختلافا فى معبوداتهم »[2] فنجد أن ديانتهم قبل الاسلام — بل قبل الفتح الرومانى — المجوسية يقول ابن خلدون — فى كتابه العبر — معبرا عن ذلك بقوله : « وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب الا فى بعض الأحايين . يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم فان الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم فقد غزتهم ملوك

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ٣ ص٥١٣ — ٥١٤ .
(٢) د / حسن على حسن : تاريخ المغرب العربى ص٢٩٩ .

اليمن من قرارهم مرارا على ماذكر مؤرخوهم فاستكانوا لغلبهم ودانوا بدينهم ... »[٣] .

وقد اختلفت مواطن هؤلاء البربر المعتنقين للمجوسية أماط اللثام عنها ابن خلدون بقوله : — « أن ليليان كان عقبة على بلد البربر وراءه المغرب مثل ليبيا عند زعمون وبلاد المصامدة وبلاد السوس وكانوا على دين المجوسية »[٤] وكذلك كانت قبائل بنى بازغة وبنى يرغش وزناتة الحبابية ومغراوة وبنى يفرن الزناتى على دين المجوسية » .

هذا عن الديانة الوثنية أو عبادة الكائنات والظواهر الطبيعية الأخرى التى انتشرت بين هذه القبائل — التى كشف النقاب عنها ابن خلدون — والتى ظلت على وثنيتها الأولى « فلم يعتنق أصحابها دينا من الأديان السماوية التى دخلت المنطقة » حتى عم نور الاسلام الوهاج أرجاء البـــلاد .

أما عن الديانة اليهودية فقد كانت داخل البلاد حيث ينتشر اليهود كتجار ومرابين شأنهم فى كل زمان[٦] ومكان فقد دخل كثير من البربر واعتنقوا الديانة اليهودية وذلك عند استقحال ملك بنى اسرائيل لقرب الشام وسلطانه منهم وقد نال علماء خلفاء بنى أمية من هؤلاء القبـــائل

---

(٣) العبر جـ٦ ص٢٠٦ .

(٤) المرجع السابق جـ٤ ص١٨٦ .

(٥) السيوطى : البستان فى اخبار الزمان ص٣٥ مخطوط نقلا عن : د / حسن : تاريخ المغرب العربى ص٢٩٩ ويضيف الى ذلك لوبون فيقول : وكان البربر قبل الفتح العربى يعبدون آلهة قرطاجنة مثل « غرزيل ومستبعان » وغيرهما من الآلهة القبساة وروى يرتوليان أن البربر كانوا يضحون ببعض الأولاد تقربا الى اله الزمن كيوان وكانوا يعبدون النار ايضا : (حضارة العرب ص ٢٤٨) .

(٦) عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص٢٧ .

مشقات عظيمة وطالما خرجوا على الخلفاء وقتلوا الجيوش ونهبوا الأمصار وانتشرت بينهم النحل والبدع فتدينوا بها ومالوا اليها[٧] .

واذا كانت اليهودية لم يكن لها الشأن الذى أراد البعض نسبته اليها فانه مما لا شك فيه أنها انتشرت فى شمال افريقية كلها — واذا استثنينا نسل اليهود الذين أخرجوا من بلاد الأندلس فى القرن الخامس عشر الميلادى فان معظم أتباع هذا الدين من أهل البلاد هم من نسل أولئك الذين تهودوا قبل دخول الاسلام فى بلادهم[٨] ذلك أن اليهود — بلا ريب — قد رافقوا الفينيقيين فى حلهم وترحالهم الى الموانىء والمصارف التجارية بافريقية وان تشتت يهود فلسطين على عهد الفرس جلب الى افريقية والى العالم الرومانى بأسره عددا كبيرا من المهاجرين اليهود .

وقد وقع تقرير عدد اليهود فى العالم فى القرن الأول الميلادى بما يفوق ستة أو سبعة ملايين يهودى منهم مليون بمصر وكان عددهم مرتفعا أيضا بطرابلس وكانوا يعيشون أحرارا طبق عوائدهم وتقاليدهم وقوانينهم ويقومون بدعاية كبيرة تحت ظل بيعتهم وكان التبشير ضاربا أطنابه والوثنيون يعتنقون دين اليهود بكثرة ثم انتشرت الديانة اليهودية فى بعض القبائل بالجنوب الغربى من البلاد التونسية[٩] .

على أن اليهودية كانت منتشرة بين البربر البتر بصفة خاصة وذلك بقيادة زعيمتهم وهى : الكاهنة وتدعى داهيا بنت ماتيا بن تيفان من قبيلة جراوة[١٠] ومكان اقامتها جبل أوراس حيث اتخذته معقلا

---

(٧) العبر جـ٦ ص١٠٧ .
(٨) دائرة المعارف الاسلامية جـ٣ ص٥١٤ ، ٥١٧ .
(٩) مدنية المغرب العربى فى التاريخ ص٣٦١ — ٣٦٢ .
(١٠) البيان المغرب جـ١ ص٣٥ ، الخلاصة النقية ص٥١ ، الاستقصا جـ١ ص ٩٣ .

وحصنا [11] وكانت تدين باليهودية وكذلك كانت عشيرتها وفى اطـار هذا الصدد يقول ابن خلدون : « ان القبائل البربرية كانت وقت الفتح الاسلامى تدين باليهودية وانهم تلقوها منذ أقدم العصـــور عن بنى اسرائيل » ثم يستطرد قائلا : « أما القبائل التى اعتنقت اليهودية فقبيلة جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة وقبائل نفوسة فى افريقية وقبائل فندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو فازاز فى المغرب الأقصى [12] وأيضا اشتهرت مدينة جادوا والواقعة قريبا من جبل نفوســة بكثرة اليهود وشاركتها مدينة سلجماسة فى ذلك [13] .

ولما كانت اليهودية فى داخل البلاد ولم تكن هناك أحزاب معادية لها فقد سلمت من الأذى ولم يصبها ما أصاب المسيحية على أيــدى الوندال غير أن اليهودية فى ذاتها قليلة الانتشار وذلك لضعف التبشير بها فلم يكن اليهود يعنون بالدين ونشره قدر عنايتهم بالمال واستثماره لذلك لم يكونوا متحمسين يوما ــ ما ــ لأن تكون ديانتهم ديانة عالمية .

ولم يعتنق اليهود فى المغرب الافريقى الاسلام ولذا فقد بقى حال اليهود بعد الفتح كما كان من قبل [14] ومع هذا فقد كانت جبال أوراس تكره الرومان وتبغضهم وتثور عليهم وتعمل لتطهير المغرب منهم فبغضت كل شىء يتصل بالرومان حتى حضارتهم ودينهم اللذين أخذا بهما البربر فى المدن وناوأت الرومان وضايقتهم فى كل الأشياء حتى فى الدين فان الرومان كانوا مسيحيين فاعتنق أوراس اليهودية التى تنابذ المســيحية وتعاديها فانتشرت اليهودية فى أوراس سيما فى قبيلة الكاهنة .

---

(١١) معالم الايمان جـ١ ص٦١ ، أبو الحسن على : كتاب الجغرافية ص ١٤٥ ترجمة اسماعيل العربى بيروت ، الكامل جـ٤ ص٣٧ .

(١٢) العبر جـ٦ ص٢٠٧ .

(١٣) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص٩٠ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، وراجع تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص٨ ومابعدها .

(١٤) المجمل فى تاريخ الأندلس ص٢٧ ــ ٢٨ .

ويرى « محمد دبوز » أنهم تحمسوا لهذا الدين الذى يعادى الرومان المسيحيين وتصوروه بوجدانهم فقط أما أنهم يتقيدوا به فى الأعمال ويقيموا طقوسه فى المعابد فهذا مما يستبعد ذلك لأن المسلمين الفاتحين والمؤرخين الذين نقلوا عنهم لم يذكروا أنهم رأوا فى أوراس من آثار بيع للعبادة ولا عيدا من أعياد اليهود الكثيرة يحتفل به البربر ويبجلونه ٦

لقد اعتنقت أوراس اليهودية كما اعتنق البربر الآخرون المسيحية لغرض سياسى ولأشياء أعجبوا بها فى المسيحية واليهودية كالدعوة الى الأخلاق الحسنة والأمر بالعدل والاحسان والنهى عن الظلم والطغيان بيد أنه عندما جاء الاسلام وجدوا جماله أبرع وأمره بالأخلاق العظمى أروع وحضه على العدل والاخاء والمساواة أكثر فامنوا به كل الايمان .

ان كره البربر للرومان وحب البربر للكمال سيما فى الأديان هو الذى جعلهم يؤمنون بالمسيحية واليهودية فايثار أوراس لليهودية كان للسبب الذى أسلفنا ـ وهو مخالفة الرومان فى كل شىء ومصادقة أعدائهم حتى فى الأديان ـ على أن هذه اليهودية ـ اذا صحت ـ فانه قد أخذت بها طوائف قليلة فى أوراس وكان مع جراوة فى جبال أوراس لواتة وهراوة وكتامة وقبائل أخرى أغلبها من البتر ـ ان أوراس هى المنطقة التى لم يستطع الرومان الأقوياء ـ رغم تسلطهم واحتلالهم للمغرب ـ ٣٩ عاما تقريبا ـ الاستيلاء عليها واحتلالها وأن ينشئوا مراكزهم الحربية فيها لقد استطاعوا دخول أوراس بعد جهد جهيد ومجالدات ومكايدات والبقاء فيه مدة قصيرة ثم ثارت عليهم أوراس تدحرجهم دحرجة الشمس الحامية أكداس الثلج من رؤوس الجبال اذا ذابتها وكانت أوراس ومعاقل البربر الكبرى يرون الرومان فى جلودهم البيضاء أضر لهم من حلول البياض فى سواد العيون فكرهوهم كراهية البصير للعمى فثاروا عليهم وجالدوهم بسيوفهم ومن ثم لم يستطع الرومان البقاء فى أوراس لينفثوا

فيهم ميوعة حضارتهم ومفاسد مدنيتهم التي يقيد بها الاستعمار غرائسه ليرتع فيها فبقيت أوراس على أخلاق بداوتها وفي رأسها الشجاعة والثبات والفداء والتضحية في سبيل الوطن اذا هدده الأعداء[١٥] .

أما عن الديانة المسيحية فقد انتشرت في المدن الساحلية حيث كانت السيادة الرومانية ذلك أن التبشير بالأنجيل كان حول بيع اليهود أول الأمر بالمدن والموانىء الساحلية وعلى الأخص بقرطاج ثم انتشر — التبشير — في الحقول وفي داخل البلاد ويمكن القول : أن النصرانية بدأت في الظهور بافريقية آخر القرن الأول الميلادي ولكنها لم تبرز حقيقة جلية في التاريخ الا عندما دخلت المسيحية الى المغرب عن طريق رهبان مصر في القرن الثاني الميلادي[١٦] .

ومع أنها لاقت قبولا طيبا فقد كان انتشارها محدودا وأخذ الرهبان ينتشرون بين البربر فكانت المسيحية بذلك سبيلا للاتصال بين الرومان والأهلين وكانت الكنائس مكانا صالحا للاتصال والتفاهم وبذلك وفق الرهبان فيما عجز عنه الحكام وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد اليهم ولكن ظل تأثيرهم ضعيفا[١٧] ذلك أن المسيحية لم تنتشر داخل البلاد ولم تحقق نجاحا هناك وانما تمركزت في المدن الساحلية الساحلي وقد يرجع ذلك الى أن النفوذ البيزنطي لم يكن يتجاوز هذا النطاق [١٨] كما أن البربر سكان البلاد الأصليين لم يقبلوا على اعتناقها باعتبارها مذهب الطبقة الحاكمة والمستعمرة للبلاد[١٩] يضاف الى ذلك وجود الصحراء التي كانت تقف حاجزا منيعا في اتجاه المسيحية من الشمال الى الجنوب[٢٠] .

---

(١٥) محمد دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج٢ ص٧٧ — ٧٨ .
(١٦) مدنية المغرب العربي في التاريخ ص٣٦٢ .
(١٧) د / حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص٢٨ ، د/حسن محمود ليبيا بين الماضي والحاضر ص٩٤ .
(١٨) المصدر السابق ونفس الصفحة .
(١٩) الاسلام والثقافة العربية في افريقية ج١ ا ص١٤٣ .
(٢٠) المصدر نفسه ص١٤٤ .

ولما استولى جستنيان على البلاد اهتم اهتماما بالغا بإعادة افريقية الى المسيحية فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها وشجع البعثات التبشيرية فأخذت المسيحية تنشط من جديد وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبراته وفى طرابلس وأقيمت الكنائس فى ولجات مثل (أوجلة) و (غدامس)[٢١] فقد استطاعت روما منذ أوائل القرن الرابع الميلادى أن تفرض النصرانية على معظم القبائل[٢٢] .

على أن حياة المسيحيين الأولين بافريقية لاتختلف كثيرا عن حياة بقية النصارى المنبثين فى ربى البحر الأبيض المتوسط فكانوا يجتمعون فى دار الأسقف للاصغاء الى تلاوة الانجيل وتفسيره والصلاة جماعة ولتناول القربان المقدس وكان المطران رئيس الجميع يساعده فى عمله القساوسة أو الكهنة والقارىء وهو من درجة الكهنوت الصغرى والمكلف بحفظ الكتب المقدسة والشمامسة المكلفون بالنواحى المادية المتعلقة بالشعائر وهو مايسمى بالتشميس .

هذا وقد بقى النصارى مدة طويلة وهم يقيمون شعائر دينهم بدون معارضة وتعليق من طرف السلطة الرومانية التى كانت تتركهم وشأنهم مثلما كانت تتسامح عادة مع الأديان الأخرى باختلاف أنواعها فكانوا يجتمعون فى محلهم الخاص ويكسبون الأملاك والمتاع كما كانت لهم مقابرهم الخاصة بهم والمنفصلة عن مقابر اليهود أو الوثنيين فكانت مقابرهم غير مسقوفة ولكنهم كانوا يدفنون موتاهم أيضا فى دهاليز تحت الأرض ويسمونها بالسراديب ثم الدياميس وأشهر الدياميس الموجودة بمدينة سوسة وفيها مايزيد على عشرين ألفا من قبور النصارى يرجع عهد أقدمها الى آخر القرن الثانى الملادى .

---

(٢١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ترجمة د/حسن ابراهيم حسن ص ١٤٣ .

(٢٢) ليبيا بين الماضى والحاضر ص٩٤ .

(٢٣) الأسقف فوق القسيس دون المطران وكثيرا ماتطلق هذه الكلمة على المطران ايضا راجع : مدنية المغرب العربى هلمش ص٣٦٢ .

ويبدو أن السلطة الرومانية بدأت وقتذاك تقريبا فى اتخاذ وسائل القسر والقهر ضد النصارى وكانت أول عملية من عملياتها كانت سنة ١٨٠م ألقى فيها القبض على اثنى عشر نصرانيا حكم عليهم القنصل بالاعدام فضربت أعناقهم بقرطاج(٢٤) .

ولا غرو فقد كان النظام الكنسي مختلا فى افريقية بسبب تدهور الأخلاق بين رجال الدين وبسبب نشاط الكنيسة الغربية (كنيسة روما) فى عهد (جريجورى الكبير) الذي عمل جاهدا على توطيد مركز الكنيسة الغربية بارسال البعوث التبشيرية الى افريقية فتغلغل القسس فى البلاد واستطاعوا أن ينشروا لواء المسيحية بين كثير من القبائل البربرية .

واذا كانت الحكومة البيزنطية قد أخذت تنسحب رويدا من المواقع الداخلية فقد أخذ القسس يحلون محل الحكام حتى أصبحوا — بمرور الأيام — حماة الضعفاء والمظلومين فلم يعد هؤلاء يتوجهون الى القسطنطينية لتقديم مظالمهم وانما أخذوا يتوجهون الى بابا روما فهو أقرب اليهم وربما كان أقوى سلطانا ونفوذا .

ومن ثم أصبحت (روما) سلطة جديدة فى افريقية البيزنطية يحسب حسابها ويركن السكان اليها ويلوذون فى كثير من أمور حكومتهم فاعتمد الحكام على رجال الدين الذين لم يلبثوا أن سادوهم . ففى أوائل القرن السادس كان القساوسة يديرون افريقية(٢٥) .

ويصور — لنا — ابن خلدون فى كتابه « العبر » كيف دان السكان بالنصرانية وهم تحت حكم الرومان فيقول : — « وقد كانوا (البربر) دانوا لعهدهم بما تعبدوهم به من دين النصرانية وأعطوهم المهادنة وأدوا اليهم الجباية طواعية وقد كان للبربر فى الضواحى وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ماشاء من قوة وعدة وعدد ومنوك ورؤساء

---

(٢٤) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ص١٣ .

(٢٥) ليبيا بين الماضى والحاضر ص٩٦ .

وأقيال وأمراؤها لا ينالون بذل ولا ينالهم الروم والافرنج فى ضواحيهم تلك بمسخطة ولا اساءة وقد صحبهم الاســـلام وهى فى مملكته قد استولوا على رومة وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية كما كان المقوقس صاحب الاسكندرية وبرقة ومصر يؤدون الجباية له وكما كان صاحب طرابلس وبلدة وصبرة وصاحب صـقلية وصاحب الأندلس من السقوط لما كان الروم غلبوا على هؤلاء الأمم أجمع وعنهم كلهم أخـذوا دين النصرانية .. »[٢٦] .

على أنه لم يكد ينتهى القرن السادس الميلادى حتى أصبحت علاقة افريقية بالدولة البيزنطية علاقة واهية وأصبح الموظفون البيزنطيون فى جميع نواحى الادارة يميلون الى التحرر من نير سيطرة الامبراطـور البعيد عنهم جدا ـ كما أصبح المواطنون يتطلعون بالكنيسة الغربيـة التى تجمعهم بعض الشىء بل أخذت الكنيسة تعمل سلطتها الادارية على تؤدة ومهل محل السلطة الادارية المركزية وتعمل على افسـاد الادارة المحلية التى لم يكن ينقصها الاضطراب[٢٧] والفوضى كما استغل النصرانية كثير من القبائل البربرية المجاورة للمسـتعمرات اليونانية أيام الحكم المسيحى[٢٨] ، وتذكر دائرة المعارف الاسلامية ، أن اليهودية قد مهـدت السبيل للنصرانية التى يسرعان ما افترقت عنها هنا ـ كما حدث فى غير بلاد البربر ـ وقوى شأنها وازدهرت بالرغم من الكفاح العنيف الذى كان لابد لها من أن تتخذه على الوثنية وبالرغم من انقسام الرأى بـين النصارى أنفسهم انقساما أدى الى تمزيق وحدتها وتفتيتها .

على أن هذا ليس مقام الافاضة فى ذكر هذا الانقسام ـ وانما يكفينا هنا ملاحظة جرى بنا اماطة اللثام عنها وهى : ـ أن المسـيحية أتاحت للبربر فرصة الاتحاد ضد الحكم الرومانى المستبد والمتعسـف

---

(٢٦) العبر جـ٦ ص١٠٧ و .
(٢٧) ليبيا بين الماضى والحاضر ص٩٥ .
(٢٨) لوبون حضارة العرب ص٢٤٨ .

فى الوقت نفسه وأنهم أقبلوا أيما اقبال على اعتناق الآراء الخارجة التى كانت تتعارض مع عقيدة الكنيسة فى رومية .

على أن هذا الأمر نفسه قد حدث بعد الفتح الاسلامى ولم يتغير فيه الا أسماء الخصوم لا غير[٢٩] ذلك أنه فى عهد ولاية (جريجورى الثانى) — جرجير — على افريقية حدثت انقسامات دينية كثرت المذاهب وانقسم الروم شيعا وفرقا وأحزابا كل حزب بما لديهم فرحون لاهون

ومن ثم رأى هذا الوالى أن خير وسيلة لتجنب البلاد هذه الانقسامات هو اعلان الانفصال عن بيزنطة وشجعته البابوية فى روما على ذلك الانفصال لأن انفصال افريقية عن الكنيسة الشرقية ودخولها فى طاعة البابوية يعد نصرا عظيما للبابوية فى عصر اشتد فيه النزاع بين الاثنين معا هذا فضلا عن أن أهالى برقة وطرابلس بالذات كانوا فى مقدمة من آزر (جرجير) على الانفصال من ثم نرى أن الحكم العسكرى الغاشم الظالم والضرائب الباهظة الجائرة التى فرضتها السلطة الحاكمة الباغية والخلافات المذهبية واهمال المشروعات الاصلاحية كل هذا أوجد الفرصة الملائمة والموائمة للعرب فى وثبتهم الكبرى[٣٠] التحررية العادلة كى يرثوا هذه البلاد المضطهدة ويحرروها من نير العبودية والعسف والهوان — وفى الوقت نفسه ليخرجوها — أيضا — من ظلم الجاهلية وظلمات العبودية الى سماحة الاسلام وعدالته وسمو مبادئه ونور المدنية وسماء العرفان هذا وقد استمرت النصرانية فى ليبيا حتى بعد زوال الحكم البيزنطى[٣١] .

بيد أنه بعد أن فتح الرومان ليبيا ومع مرور الزمن وتعاقب السنين اندمج سكانها الأصليون من البربر بالروم ونسى بعضهم قوميتهم وعاداتهم وأصبحوا كروما — سواء بسواء — فى كل مقومات الحياة حتى

---

(٢٩) دائرة المعارف الاسلامية جـ٣ ص٥١٤ .

(٣٠) ليبيا بين الماضى والحاضر ص٩٥ — ٩٦ .

(٣١) نقولا زيادة : — ليبيا من الاستعمار الايطالى الى الاستقلال ص٢٧

المتلصص في الدولة وكان هذا الاندماج في بربر السواحل وما تاربها أما البربر الذين يسكنون الجبال وما ورائها فقد احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم ولم يتأثروا بعادات الروم ولذلك نراهم كثيرا ما قاوموا الروم وحاولوا ابعادهم بإجلائهم عن وطنهم ولم يتركوا فرصة للثورة الا ثاروا عليهم تخلصا من حكمهم(٣٢) الجائر البغيض وتعسفهم المقوت واستبدادهم المذموم ذلك أن نار الرغبة في الاستقلال لم يخمد أوارها ولم يخب جذوتها ولما ضعفت سلطان الروم برزت شخصية البربر فلما اعتنق بعضهم المسيحية على مذهب يخالف مذهب الحكومة تحولت الخلافات الدينية حربا ضروسا بين الأجناس كما كانت الحال بمصر بين الروم الملكانيين واليعاقبة المصريين وكانت الحكومة في المغرب ـ وقتذاك ـ تعاقب مخالفيها أشد العقاب، وبلغ الأمر الى حد أن أحد الأباطرة تسلم ثلاثمائة أسقفا وألوفا من صغار القسس ونفاهم وحرم على العامة اقامة شعائر الدين كما حرم المخالفين منهم حقوقهم المدنية فكان هذا الاضطهاد الديني مذكيا لنار العداء الجنسي فكثرت الثورات على الروم وتحرر كثير من البربر من نير الحكومة(٣٣) على حد قول ابن خلدون : « وصار لهم وراء الأمصار المرهوبة ماشاء الله من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء لاينالهم الروم والفرنج بمسخطة ولا اساءة (٣٤) .

ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية نهائيا في القرن الرابع الميلادي كانت برقة في نطاق الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) ولعل الحادث الوحيد الأهم الذي عرفته برقة على عهد الرومان وأيام البيزنطيين هو انتشار النصرانية في ربوعها فقد وصلتها النصرانية في

(٣٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص١٨ .

(٣٣) محمد أحمد حسونة : الجغرافية التاريخية الاسلامية ص٥٤ ـ ٥٥

(٣٤) ابن خلدون : العبر ج٦ ص١٠٧ .

القرن الأول الميلادى ويعتبر مرقس مؤسس الكرازة المرقسية المصرية قيرينى الأصل[٣٥] .

ولعل نصارى برقة لم يتعرضوا للاضطهاد القوى العنيف الذى تعرض له النصارى فى أنحاء أخرى من الامبراطورية الرومانية .

على أنه بعد أن منح قسطنطين النصارى حريتهم الدينية نشط النصارى البرقاويون الى بناء الكنائس وصار الأساقفة هم رجال الحل والعقد لضعف سلطة الامبراطورية المركزية .

ومن بين تلك الأسماء اللامعة فى أواخر القرن الرابع الميلادى سينيسوس الفيلسوف القيرينى الأصل الذى كان نصرانيا ثم صار (سنة ٤١٠م) مطرانا فى بطوليماوس (طلميثة) التى كانت — على ما يبدو — مركز البلاد الادارى كما كان المشرف على شئون الدين والادارة وقائد الجيش — هذا وقد دهم طرابلس أوائل القرن الخامس الميلادى خطر الفندال اذ احتلوها واستقروا فيها (٤٢٧ — ٥٣٣م) ودمروا ما استطاعوا التدمير — ومع أن الفندال لم يحتلوا برقة ذاتها فان البلاد تأثرت — تأثرا بالغا — بسبب هذه الكارثة التى اصابت البلاد الشقيقة — تلك — .

وحدث عام (٥٢٧ — ٥٦٥م) أن قام الامبراطور جستنيان بآخر محاولة لانعاش المدن البرقاوية فبنى أسوارها ورمم قلاعها وجدد حصونها وأنفق — عن سعة وبذخ — على كنائسها لكن الرجال قل عددهم والمال نقص موارده فقد ثخر السوس سريعا جسم برقة اليونانية الرومانية وأفقرت الضرائب الرومانية جيوب أهلها وأقفرت الأرض من سكانها وماتبقى فيها من حصن قائم أو سور عامر الا وقد حطمته الغزوة

---

(٣٥) قيرين تبعد عن الشاطىء ثلاثة عشر كم حيث تقوم ميناء صالحة لرسو السفن وهى ميناء أبو لونية وظلت قيرينى تابعة ولو اسميا لبطريرك الاسكندرية .

الساسانية للبلاد بقيادة خسرو (٦١٦ ـ ٦١٨م) اذ قاد جيشه اليها بعد استيلائه على مصر[٣٦] .

استقر المسيحيون في أماكن متعددة من أرض المغرب فعلى أطراف مدينة طرابلس وجدت جالية مسيحية كما أن مدينة تلمسان وجدت بها طائفة أخرى[٣٧] .

كذلك أشار ابن أبي دينار الى التجاء القبط للتحصن بمدينة نفيس . « وفتح ـ عقبة بن نافع ـ مدينة نفيس وكانت حصينة واليها التجأ كثير من البربر والنصارى لحصانتها فحاصرها عقبة وقاتلهم حتى فتحها وأصاب غنائم كثيرة [٣٨] يضاف الى هذه الجماعات مجموعة الأسر القبطية والتي بلغت الألف ـ والتي انتقلت من مصر الى تونس للمشاركة في انشاء الأسطول الاسلامي وذلك بأمر الخليفة عبد الملك بن مروان يقول البكري : « كتب عبد الله بن مروان الى أخيه عبد العزيز وهو والي مصر ـ وقتذاك ـ أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش ـ وهي تونس وكتب الى ابن النعمان يأمره أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر فوصل القبط الى حسان بن النعمان وهو مقيم بتونس ... وأمر القبط بعمارتها .. »[٣٩] .

واذا كان الهدف الأساسي من أعمال الفتح الاسلامي في منطقة المغرب العربي هو نشر الدين الاسلامي الحنيف واتاحة الفرصة كاملة للبربر سكان البلاد الأصليين والواقعين تحت سيطرة النفوذ البيزنطي كي يتعرفوا على تعاليم الاسلام ومبادئه القيمة ومثله السامية وأهدافه

---

(٣٦) نقولا زيادة برقة الدولة العربية الثامنة ص٣٨ ـ ٣٩ .
(٣٧) المغرب في ذكر بلاد افريقية ص٧ ، ٧٦ .
(٣٨) المؤنس في أخبار افريقية ص٣١ .
(٣٩) المغرب في ذكر بلاد افريقية ص٣٨ .

الزاهية الزاهرة وبالاضافة الى هذا تأمين الفتح العرب الاسلامى فى مصر وغير ذلك من الأهداف الأصيلة على أنه مما لاريب فيه ولا ارتياب أن الدين الاسلامي الحنيف قد تغلب على هذه الديانات — النلا اسلامية — المنتشرة فى شمال افريقية قبل الفتح الاسلامى لها فاعتنقه غالبيـــة الشعب البربرى عن رضى واقتناع ويرجع ذلك لأسباب كثيرة نجتزىء منها القليل قدر المستطاع : — منها أن المسيحية كانت قد ضعفت فى المغرب وذلك لما انتابها من محن على أيدى الهجرات الجرمانية الهمجية خاصة — الوندال — فقد نفذ الوندال من أسبانيا الى شمال افريقية[٤٠] عن طريق البحر بقيادة ملكهم جنسريك وافتتحوها سنة ٤٢٩م وكانوا يدينون بالمذهب الاريوسى ويعادون الكنيسة الرومية وعاونهم البربر حبا فى التخـــلص من نير روما وحاكمها ولكن الوندال عاثوا فى افريقية وعبثـــوا بها أيما عيث وعبث وخربوا المدن والمنشات الرومانية واستقروا سادة فى البلاد المفتوحة مدى قرن من الزمن عانى البربر فى أمـــر ضروب العســـف والطغيان[٤١] . لذا فقد أصابوا كنائس المسيحية فى شمال افريقية بتخريب جسيم[٤٢] أليم وفى سنة ٥٣٤م بعث يوســـتنيان امبراطور (قيصر) الدولة الرومانية الشرقية قائده الشهير بليزار يوس الى افريقية على رأس جيش ضـــخم جم فافتتحها وحطم سلطان الوندال وأجلاهم عنها وحينئذ عادت افريقية الى سلطان وسلطة الدولة الشرقية[٤٣] ه هذا الى تعدد المذاهب المسيحية وتناحرها وتكفير بعضها بعضا أن قلل الثقة فى نفوس الناس مما هيأ الســـبل أمام هذه النفوس لتقبل التعاليم الاسلامية الواضحة الراقية .

أما اليهودية المنتشرة بين قبائل البربر البتر فقد سلمت من الأذى

---

(٤٠) المجمل فى تاريخ الأندلس ص٢٧ .
(٤١) دولة الاسلام فى الأندلس ص١٣ .
(٤٢) المجمل فى تاريخ الأندلس ص٢٧ .
(٤٣) دولة الاسلام فى الأندلس ص١٣ — ١٤ .

ولم يصيبها ما أصاب المسيحية على أيدى الوندال وغيرهم وذلك لوجودها داخل البلاد ولم يكن هناك من يعاديها كما أن اليهودية فى ذاتها قليلة الانتشار ومن ثم لم يكن اليهود يهتمون بها قدر اهتمامهم بالمال واستثماره وتسخيره — بحق وبغير حق — للنماء والثراء — وكذلك لم يكونوا متحمسين يوما ما — لأن تكون ديانتهم ديانة عالمية ومن ثم لم يعتنق اليهود فى المغرب الافريقى الاسلام الا قليلا — أما الوثنية فانها وان اعتنقها غالبية الشعب البربرى الا أنها لم تكن لتثبت أمام الفكرة الاسلامية الواضحة البسيطة خصوصا وأن العرب المسلمين كانوا يعترفون بالديانات السماوية الأخرى ، ووفد نفر من البربر المتعطشين للعلم على تلك المعاهدة لتلقى العلوم والمعارف • فيها واتضحت أهمية هذه الخطوة الهامة منذ أن أسس العرب بقيادة عقبة القيروان التى غدت على عهد موسى بن نصير مقر الوالى ومركز الدواوين الكبرى ومصدر الادارة والسلطان وكفل هذا التنظيم الادارى لبلاد المغرب الاستقرار والهدوء وأخذ السكان يألفون العرب وادارتهم ويفدون على العاصمة لقضاء حاجتهم فى طمأنينة وسلام(٤٤) •

وكان أول ما أنشأه العرب « الدور والمساجد ثم التفتوا الى تعليم صبيانهم فاتخذوا لهم محلا — مكانا — بسيط البناء يجتمعون فيه لقراءة كتاب الله العزيز » وكان انشاء هذه الكتاتيب منذ زمن مبكر فى بلاد المغرب سببا فى سرعة انتشار اللغة العربية بين سكانها الأصليين وذلك بفضل ما تحلى به العاملون فيها من خلق رفيع واخلاص فى العمل فترك أولئك المدرسون أثرا طيبا فى نفوس أبناء البربر الذين ظلوا يرددون المأثر الجليلة التى شاهدوها فى أولئك المدرسين فقد قال أحد رجال البربر : « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا فى الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه » وأسهمت هذه المعاهد التعليمية

---

(٤٤) موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ص٥٦ .

التثقيفية فى انتشار اللغة العربية سريعا بين جموع البربر الغفيرة الذين استجابوا — توا — لتلك اللغة الفصحى — لغة كتاب الله الحكيم — ووجدوا فيها سبيلا يجمع كلمتهم — ذلك أن أهل المغرب كانوا فى مسيس الحاجة الى لغة يتفاهمون بها ويتخاطبون وطريقة يكتبون بها ليعبروا عنها مايريدون — ولما كانت اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم فان شدة ايمانهم بالاسلام ورغبتهم الشديدة الى قراءة الكتاب الكريم مما دفعهم على الاقبال الى تعلمها — اللغة — واجادتها — كما وجد البربر فى العرب الذين أقاموا بين ظهرانيهم نماذج رفيعة فى أداء فى أداء اللغة العربية السليمة والنطق بها اذ أجاد العرب الخطابة والتعبير وتركوا للبربر صورا ناصعة يمكن محاكاتها فى ميدان اللغة العربية وكانت النتيجة الهامة لهذه السياسة اختفاء العنصر اليونانى والرومانى من بلاد المغرب حتى اختفت آثارهم من البلاد ولم تبق الا آثار قليلة من مظاهر الحضارة القديمة فى نواح ساحلية أخرى(٤٥) .

على أن هذه المظاهر الباهتة تلك لم تلبث أن اختفت بدورها تبعا لاختلاف اللغات اليونانية والفينيقية واللاتينية التى كان يستعملها الروم ومن تأثر بهم من السكان .

ومن ثم أثبتت ادارة موسى بن نصير قدرتها الفائقة على دفع بلاد المغرب الى التطور العظيم الذى مازال — وسيظل — يكلل حياة سكانها الى اليوم فلم تعد تلك البلاد شريطا ساحليا يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين وفيما وراءهم فى داخل البلاد سكان بعيدون عن الأخذ بأسباب الرقى وانما أصبحت بلاد المغرب العربى وحدة متماسكة لا انفصام فيها تشرف عليها ادارة مثالية (٤٦) رائدة ويسكنها شعب مسلم قوى بدينه تنتشر بين أفراده وشائج المودة وأواصر الألفة والمحبة .

---

(٤٥) المرجع السابق ص٥٩ ، ٦٠ .
(٤٦) نفسه ونفس الصفحة .

وكانوا يقبلون من أهلها بقاءهم عليها [٤٧] على أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . انما كانوا يشنون حربا لا هوادة فيها على الديانات الوثنية تلك — وقد أشار الى ذلك ابن خلدون فى كتابه العبر : « أن يليان دل عقبة على بلاد البربر وراءه المغرب مثل وليلة عند زرهون وبلاد المصامدة وبلاد السوس وكانوا على دين المجوسية .. »[٤٨] وكذلك كانت قبائل بنى يازغة وبنى يرغش وزناتة الجبلية ومغراوة وبنى يفرن الزناتى على دين المجوسية »[٤٩] وظلت هذه القبائل على وثنيتها الأولى — كما سبق أن ذكرنا — فلم يعتنق أهلها دينا من الأديان السماوية التى دخلت المنطقة حتى دخل الاسلام البلاد .

ومنذ المراحل الأولى للفتح العربى والقادة المسلمون يعملون على تحقيق الفكرة التى أقبلوا من أجلها ألا وهو نشر الاسلام ويمكن القول أن ذلك بدأ بصورة عملية واقعية منذ تأسيس القيروان والتى كان من أهداف بنائها اقامة مجتمع اسلامى ينطلق منه الدعاة الى كافة أنحاء افريقية لنشر الاسلام فى جميع أصقاعها وبقاعها فضلا عن استقبالها للبربر الذين وجدوا فى اقامتهم بين العرب خير عون على تعلم الدين الجديد[٥٠] .

يقول الفردبل « بفضل القيروان التى صارت أول عاصمة اسلامية فى المغرب ويسهر عليها قادة عرب صادقو الايمان كان على سكانها أن يلتزموا باداء فروض الدين والبربر البدو المقيمون فى النواحى المجاورة وكانوا يغشون أسواق المدينة كان فى وسعهم أن يقتدوا بسيرة سكانها وأن يقدموا اليها لتلقى التعليم الدينى فيها ليعودوا بعد ذلك مرشدين

---

(٤٧) المجمل فى تاريخ الأندلس ص٢٨ .

(٤٨) العبر ج٤ ص١٨٦ .

(٤٩) عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى : — البستان فى أخبار الزمن ورقة ٣٥ مخطوط نقلا عن : د / حسن على حسن : تاريخ المغرب العربى ص ٣٠٠ .

(٥٠) د / حسن على حسن : تاريخ المغرب العربى ص٣٠١ .

لبنى عشيرتهم فيما يتعلق بالتعليم الدينى فضـــلا عن أولئك المعلمـــين العرب أو البربر الذين كانت ترسلهم الحكومة العربية الى الأقاليم والقرى لتعليم الناس بعد أن يتكونوا فى العاصمة[٥١] وليس ببعيد أن كان فى دعاء عقبة بن نافع مايشير الى الهدف الدينى من انشاء القيروان حين دعا بعد الفراغ من بنائها قائلا : « اللهم املأها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفر بك • وأعز بهـــا الاسلام وأمنها من جبابرة الأرض »[٥٢] •

ولما كان الهدف الأساسى من عملية الفتح الاسلامى فى منطقة المغرب العربى هو نشر الاسلام من ناحية ولاتاحة الفرصة للبربر سكان البلاد الأصليين والواقعين تحت سيطرة البيزنطيين كى يتعرفوا على الاسلام ومبادئه المثلى السامية من ناحية ثانية ويضاف الى هذا الهدف الأساسى تأمين الفتح العربى فى مصر وغير ذلك من الأهداف من ناحية ثالثة فلذا فقد تضافرت عدة عوامل على نشر الاسلام فى المغرب العـــربى وجعله قطرا اسلاميا يشارك غيره من أقطار الدولة الاسلامية فى تشييد صرح الحضارة الاسلامية بعد أن أسلم أبناؤه وحسن ايمانهم[٥٣] ويمكننا أن نجمل هذه العوامل فيما يلى : ـــ

انتشر الاسلام فى افريقية ابان وبعد الفتح الاسلامى لبلاد المغرب على يد القادة المسلمين ويأتى فى مقدمتهم عقبة بن نافع الذى أسس أول عاصمة اسلامية فى الشمال الافريقى فضلا عن تأسيس مسجدها

---

(٥١) الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى ص١٩٤ .

(٥٢) الدباغ : معالم الايمان جـ١ ص٧ .

(٥٣) راجع : د / حسن على حسن : تاريخ المغرب العربى ص٢٩٩ ، ص ٣٠٢ .

(٥٤) د / محمود اسماعيل : المالكية والشيعة بافريقية ابان قيام الدولة الفاطمية بحث نشر فى المجلة التـــاريخية المصرية المجـــلد الثالث والعشرون سنة ١٩٧٦ ص٧٣ .

الجامع فقد اضطلع ـ عقبة ـ بمهمة الدعوة الى الاسلام الى جانب انشغاله بمهام الفتح ومشكلاته وعلى يده تم اسلام عدد غفير من البربر(٥٤) .

وجاء بعد عقبة القائد أبو المهاجر دينار الذى استطاع عن طريق سياسة المصالحة والتودد للبربر أن يشجعهم على الاقبال على الاسلام واعتناق مبادئه فنجد أن العناصر الأخرى من « الأفارقة » قد بدأت تعتنق الاسلام فى ولاية أبى المهاجر الذى نجح ـ كما ذكر المالكى فى ضم « عجم افريقية » الى حظيرة الاسلام وقد بدأ ذلك بشكل جلى فى اسلام كسيلة بن لمموقبيلته أوربة »(٥٥) على أن اسلام البربر والأفارقة ظل سطحيا حتى خلافة عمر بن عبد العزيز فقد بعث بالعلماء والفقهاء الى المغرب لتبصير المسلمين الجدد بأمور العقيدة والشريعة وأصبحت المساجد بمثابة مراكز للدعوة(٥٦) ـ كما سيتضح فيما بعد ـ ثم يأتى دور حسان بن النعمان فى نشر الدين الاسلامى فقد بدأ يوجه جهوده ـ بعد فراغه من نشاطه العسكرى ـ فى سبيل تهيئة المناخ المناسب لدخول البربر فى الاسلام وذلك باجرائه عدة تنظيمات ادارية واقتصادية كانت تهدف الى وضع البربر فى وضع أفضل مما كانوا عليه . أما من أسلم منهم فقد أصبحوا على قدم المساواة بغيرهم من العرب المسلمين كما أتاح لهم فرصة الانضمام الى الجيش العربى حيث يتسنى لهم الاختلاط والمعايشة مع المسلمين وبذلك يسهل التعرف على الاسلام(٥٧) .

ويأتى القائد العربى موسى بن نصير ليكمل ما بدأه حسان فى نشر الاسلام بين جموع البربر الغفيرة جهارا وعلانية اذ اقتصر الأمر قبل قيام الادارة العربية على عهد موسى بن نصير على اسلام نفر من

---

(٥٥) رياض النفوس جـ١ ص٢١ .
(٥٦) البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ١ ص٤٣ .
(٥٧) تاريخ المغرب العربى ص٣٠٣ .

سكان تلك القبائل نتيجة اتصالهم بالجند العرب ثم بقائهم على دينهم اما سرا أو جهرا كل حسب ايمانه وموقفه بعد ارتداد الجيوش الاسلامية عن شمال افريقية لكن باستقرار الأوضاع على عهد موسى بن نصير بدأ المسلمون من البربر يعلنون اسلامهم وحماستهم للدين الجديد ويعملون على حمل لوائه بين جيرانهم من أهل البلاد خاصة بعد اشتراكهم مع الجيوش العربية فى الفتوح الاسلامية .

وأخذ الاسلام ينتشر سريعا من الجهات الداخلية لبلاد المغرب الى المناطق الساحلية وانتهى الأمر برسوخ الاسلام فى « افريقية والمغرب الأوسط » وتوج موسى بن نصير جهاده فى ذلك السبيل بنشر الاسلام فى المغرب الأقصى كذلك وأشارت المراجع التاريخية الموثوق بها الى هذه الحقيقة الهامة فى تاريخ البلاد فقد ذكرت أنه فى عهد موسى بن نصير « تم اسلام المغرب الأقصى » وحول المنابر هناك (بيوت العبادة القديمة) الى القبلة[٥٨] وفى الوقت نفسه نجد أنه ترك الدعاة من العرب يعلمون البربر القرآن الكريم وتعاليم الاسلام يقول ابن خلدون : « وأنزل معه سبعة وعشرين من العرب واثنى عشر ألفا من البربر وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه »[٥٩] يضاف الى ذلك ما شيده من المساجد العديدة ومنها مسجد أغمات هيلانة »[٦٠] وقد ساعد هذا على اقتلاع جذور المعتقدات الدينية القديمة من السكان المحليين وتثبيت أركان الدين الاسلامى فى نفوسهم . الى جانب الطريقة المثلى التى سار عليها موسى بن نصير منذ مطالع عهده بالمغرب العربى فقد حرص موسى بن نصير أن يضرب المثل بنفسه على سهر عمال الادارة العربية على مصالح السكان ومشاركتهم فى السراء والضراء فروت المراجع : أن موسى بن نصير دأب على الخروج بنفسه لمواساة الناس أثناء المجاعات التى تعرضوا

---

(٥٨) د / ابراهيم العدوى : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ص ٥٨ .

(٥٩) العبر جـ٦ ص١١٠ .

(٦٠) البيان المغرب جـ١ ص٤٣ .

لها وتنظيم الأقوات اللازمة لهم فخرج مع الناس مرة الى الصحراء للاستسقاء ومعه سائر الحيوانات ... وأقام فيها الى منتصف النهار ثم صلى وخطب في الناس ولم يذكر الوليد عبد الملك فقيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين فقال : — هذا مقام لايدعى فيه لغير الله تعالى » واستجابت السماء لصلاة الاستسقاء فانهمرت الأمطار وبدأت البلاد تعمر بالزروع والأقوات[٦١] .

وبذلك وضع موسى بن نصير الأساس السليم للإدارة العربية الناجحة مما يجب أن تكون مثلا يحتذى وأسوة حسنة يجب أن نقتدى وهى العمل على احترام المواطن المغربى والسهر على خدمته ومطالبه ونجحت الادارة العربية بذلك — على عهد موسى بن نصير — نجاحا باهرا الى غير ذلك من الأمثلة التى لا عد لها ولا حصر وهذا مما جعل موسى بن نصير أن يعد بحق «مؤسس المغرب العربى» .

وفى الوقت نفسه فقد كانت توجيهات الخلفاء والحكام لولاتهم تسهم بدورها فى إقرار مبادىء الاسلام ومنها العدل والمساواة ومراقبة الله عز وجل . أى التطبيق العملى للاسلام .

ومن ذلك ما وصى به سليمان بن عبد الملك واليه على المغرب محمد بن يزيد حين قال له : يامحمد بن يزيد اتق الله وحده لاشريك له وقم فيمن وليتك بالحق والعدل اللهم اشهد عليه »[٦٢] وكان جواب الوالى على هذه النصائح القيمة والتوجيهات السديدة أن قال : « مالى عذر ان لم أعدل »[٦٣] ومن ثم يمكن القول أن الاسلام قد رسخت قواعده وتوطدت أركانه على عهد اسماعيل بن أبى المهاجر والى المغرب من قبل عمر ابن عبد العزيز اذ أشارت أكثر المصادر والمراجع التاريخية الى جهوده

---

(٦١) د / ابراهيم العدوى : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ص ٥٤ .

(٦٢) القيروانى : تاريخ افريقية ص٩٣ .

(٦٣) المصدر السابق ونفس الصفحة .

الفعالة فى نشر الاسلام ومما قاله ابن عذارى فى هذا الصدد : « ومازال حريصا على دعاء البربر الى الاسلام حتى أسلم بقية البربر بافريقية على يديه فى دولة عمر بن عبد العزيز وهو الذى علم أهل افريقية الحلال والحرام »(٦٤) .

ثانيا : الدعاة المسلمون : ونعنى بهم الصحابة وغيرهم من التابعين الذين شاركوا فى أعمال الفتح الاسلامى لشمال افريقية ثم استقروا بالمنطقة كما يضاف الى هؤلاء مجموعة الدعاة التى أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز ليعاونوا اليه اسماعيل بن أبى المهاجر فى تأدية رسالته وهى نشر الاسلام وتعليم البربر قواعد الدين الاسلامى الحنيف .

وقد أشار الفرد بل الى هذه الحقيقة بقوله : « بدأت هذه الطريقة — ارسال الدعاة — فى نشر الاسلام على يد الدعاة الأتقياء منذ العصر الأموى . ويقول فون درهايدن : أن البدء فى تعلم علوم الدين كان فى الوقت الذى قام فيه الخليفة عمر بن عبد العزيز بحمله فى كل الدولة الاسلامية لنشر الدعوة فأرسل الى افريقية جماعة من الدعاة والمعلمين »(٦٥)

ومن خلال تراجم هؤلاء الدعاة يمكننا ادراك دورهم العظيم الخلاق فى تعليم البربر قواعد الاسلام ومن هؤلاء العشرة : أبو مسعود بن سعد بن مسعود التجيبى الذى قال عنه المالكى : « كان رجلا فاضلا مشهورا بالدين والفضل وهو من العشرة الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ليفقهوا أهل القيروان »(٦٦) فى كل مايتعلق بأمور دينهم . أما أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد فقد كان « رجلا صالحا فاضلا يروى عن جماعة من الصحابة منهم : أبو أيوب الأنصارى وعبد الله بن عمر ...

---

(٦٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٤٨ وراجع : د / حسن ابراهيم حسن : تاريخ المغرب العربى ص٤٠٣ .

(٦٥) راجع : الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى ص٩٧ .

(٦٦) رياض النفوس جـ١ ص٦٦ ، ٦٧ .

بعثه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى أهل افريقية ليفقههم فى الدين فانتفع به أهل افريقية وبث فيها علما كثيرا »[٦٧] .

كذلك استطاع اسماعيل بن عبيد الأنصارى وهو أحد التابعين أن يعلم البربر المقيمين بالقيروان قواعد الدين « وانتفع به خلق كثير من أهلها وغيرهم وبث فيها علما كثيرا وهو أحد العشرة التابعين وكان رجلا صالحا يقال له تاجر الله وهو الذى بنى المسجد الكبير بالقيروان الذى يعرف بمسجد الزيتونة وكان يصلى به ويعمره »[٦٨] .

ثالثا : بناء المسجد :

كما حرص القادة والولاة على بناء المساجد وتجديدها باعتبارها المعاهد العلمية التى يتعلم فيها المسلمون أمور دينهم ويؤدون فيها شعائرهم فضلا عن أنها أماكن تجمعهم لمناقشة شئونهم وأوضاعهم وقد ظهر ذلك واضحا منذ تأسيس القيروان حيث أسس عقبة المسجد الجامع بها — وجاء القادة والولاة من بعده ليؤسسوا فى أماكن عديدة متفرقة العديد من المساجد ومن هؤلاء : موسى بن نصير الذى أسس مسجدا فى أغمات هيلانة — كما سبق أن أبنا — أما يزيد بن حاتم فقد جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان سنة ١٥٧هـ وفوق ذلك فقد قام الأفراد ببناء المساجد ومن هؤلاء رويفع بن ثابت الأنصارى الصحابى الجليل اذ بنى مسجدا سنة ٤٧هـ سمى بمسجد الأنصار[٦٩] كذلك أنشأ اسماعيل بن عبيد الله مسجدا عرف بمسجد الزيتونة[٧٠] .

على أنه مما لاشك فيه أن كثرة المساجد ومباشرة الفقهاء والدعاة

---

(٦٧) المصدر السابق ص٦٤ ، ٦٥ .
(٦٨) نفسه ص٤٦٩ — ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٧٩ .
(٦٩) الدباغ : معالم الايمان جـ١ ص٢٧ .
(٧٠) المصدر السابق والصفحة .

مهامهم التعليمية والتثقيفية بها خير عون للبربر على التعرف على الاسلام وتأدية شعائره الدينية المقدسة •

هذه الجهود الجبارة من جانب المسلمين قابلتها استجابة فورية من جانب البربر فقد أسلموا وحسن اسلامهم وتشبثوا بدينهم حتى عضوا عليه بالنواجذ حتى يمكن القول — بكل ثقة واطمئنان — أنه لم يكد ينته القرن الثانى الهجرى — الذى يمثل فى معظمه عصر الولاة — الا وقد أسلم البربر وأصبح المغرب العربى بلدا اسلاميا قلبا وقالبا يشارك غيره من أقطار العالم الاسلامى مايعود عليهم بالخير العظيم والنفع العميم لخير البلاد وصـــالح العباد •

هذا وقد صاحب انتشار الاسلام — الى جانب ما أبناه — بين البربر سرعة تعلمهم اللغة العربية كذلك فقد حرص العرب منذ أن دخلوا شمال افريقية على اقامة معاهد صغيرة ملحقة بالمســاجد لتعليم أبنائهم حيث يدرسون فيها القرآن والحديث والدين واللغة وغيرها من المواد وبذلك اكتملت للمغــرب جميع الأســباب المواتية ليصــبح قطرا عربيا اسلاميا بدأ يأخذ طريقه الى جانب البلاد العربية فى المشرق ليمثل دوره المجيد فى تاريخ الاسلام والحضارة العالمية وظهرت ثمار هذا التطور الهام فى بلاد المغرب مبكرة على عهد موسى بن نصير عندما خلق من أبنائها جندا جددا يتسابقون فى رفع راية الاسلام عالية خفاقة ونشر ألويته بالحماسة التى قام بها العربى الأول الذى خرج من موطنه فى شبه الجزيرة العربية على عهد الخلفاء الراشدين (٧١) فقد هيأت الادارة العربية وكفايتها السبيل أمام الاسلام لينتشر بين البربر سريعا — فقد وجدوا فيه كل الخــلاص من متاعبهم كلها سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية وغيرها وفى الوقت نفســه رأوا فيه — أيضا — الطريق الأمثل لاستعادة سالف مجدهم الغابر فى ميدان الحضارة الانسانية وهكذا نهضت الادارة العربية برسالتها

---

(٧١) د/ابراهيم العدوى : موسى بن نصير ص٦٠ •

فى نشر الاسلام بين البربر فى جد واخلاص وكان الاسلام قد وجد طريقه الى نفوس نفر من سكان البلاد منذ دخلتها الجيوش العربية المظفرة خاصة أيام ـ القائد العربى الشهير ـ عقبة بن نافع الفهرى .

ذلك أن بناء القيروان ساعد على اجتذاب من حولها من السكان الى تعليم الدين الاسلامى(٧٢) الحنيف ولاسيما بعد أن تهيأت لهم أسباب الاتصال بالعرب وفضلا عن ذلك فان سياسة قادة العرب فى اشراك جند من البربر مع جند من العرب فى الفتوح والحرص على المساواة بين الفريقين فى المغانم والعطاء هيأ السبيل لانتشار الاسلام فى قوة بين البربر الذين وجدوا فى العرب اخوة فى الدين لا طغاة مستبدين بل مصلحين منصفين عادلين .

ولذا لم يقم البربر بدورهم الهام التاريخى الا عندما استفزهم الدين ولا غرو فان « رجال الدين عند البربر هم الذين وضعوا أساس دولة المرابطين والموحدين وقد فهم عقبة بن نافع الفهرى عقليتهم فاستطاع بعد ذلك أن يختلب ألبابهم ويجتذبهم للاسلام ولما ذاع فيهم الاسلام الفينا أنه لم يكن اسلاما رسميا هينا وانما كان اسلاما جديا صارما ... »(٧٣) .

---

(٧٢) المرجع السابق : ص٥٧ .

(٧٣) على أدهم : صقر قريش ص٥٥ ـ ٥٦ .

ثانيا : الجانب الأخلاقى : ـ(٧٤)

لعل أجمل وصف لأخلاق البربر (٧٤) ـ سكان شمال افريقية ـ هو ما عبر عنه ابن خلدون حيث نسب لهم الكثير من أسمى الصفات وأكرمها فيقول : ـ « وأما تخلقهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم فى الخلال الحميدة وماجبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ومراعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية النزيل ورعى الأذمة والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكارم والثبات فى الشدائد وحسن الملكة والاغضاء عن العيوب والتجافى عن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضعيف والاعانة على النوائب وعلو الهمة واباء الضيم ومشارفة

---

(٧٤) البربر هم سكان شمال افريقية الأقدمون وتعددت آراء المؤرخين حول مفهوم كلمة البربر فيرى الفيروز آبادى أن البربرة الكلام فى سرعة حين الغضب والبربرة كثرة الكلام والجلبة والصياح والفعل بربر .. » (القاموس المحيط جـ١ ص٣٧) وأن الرومان استعملوا كلمة بربار بمعنى سيروا بسرعة والكلمة ليست كلمة جنسية تدل على جنس انما أطلقها عليها غيرهم وقد سماهم الاغريق والمصريون القدامى « الليبيون » (فيليب رفلة : الجزائر ص١٩٢) وثمة رأى آخر يقول : أن البربر غير الليبيين وأنهم اقدم منهم فى الشمال الافريقى (الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص٦) وكان الرومان يطلقون كلمة « بربر » على نحو ما فعل اليونان من قبل على جميع العناصر التى لا تدين بحضاراتهم أو التى تأبى الدخول فى ميدان تلك الحضارات (د/ابراهيم العدوى : موسى بن نصير ص٥١) وتسمية سكان شمال افريقية تتصل اتصالا وثيقا ولها علاقة وطيدة باللغة فلما كانت لغة السكان الأصليين غير عربية أصبحت فى نظر العرب رطانة أو عجمية أو بربرية وهى اصطلاحات استعملها العرب هنا وهناك وكانت كلمة البربر من نصيب السكان فى شمال افريقية (د/أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٤ ص١٠٨) والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ومنه يقال البربر والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ومنه يقال بربر الأسد اذا زأر بأصوات غير مفهومة (ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٨٩ للاستزادة راجع (الجذور التاريخية للبربر للمؤلف (تحت الطبع) .

الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله فى نصرة دينه فلهم فى ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كان يتسطورة لحفظ منها مايكون أسوة لمتبعيه من الأمم وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم الى مراقى العز وأوفت بهم على ثنايا الملك حتى علت على الأيدى أيديهم ومضت فى الخلق بالقبض والبسط أحكامهم وكان مشاهيرهم بذلك من أهل الطبقة الأولى .. »(٧٥)

ويشارك ابن خلدون فى كتابة « العبر » البكرى فى كتابه « وصف افريقية والمغرب والأندلس فتحت عنوان « لطف أهل افريقية » يقول : « ولأهل افريقية لطف أخلاق وشمائل بالنسبة الى أهل العدوة وسائر بلاد المغرب وما ذلك الا لمجاورتهم لمصر ومزجهم بأهلها ومخالطتهم لهم ولمن سكنها من أهل أشبيلية والأندلس وهم من هم ! خفة روح وحلاوة نادرة وهم على كل حال أهل انطباع وكرم طباع .. »(٧٦)

ويتحدث المقدسى عن صفات أقاليم المغرب كل اقليم على حدة نكتفى منها فى الحديث عن البعض منها ان لم يكن كلها على أن المقدسى يتحدث عن صفة المغرب بصفة عامة قبل حديثه عن كل اقليم على حدة فيقول عن المغرب : « هذا اقليم بهى كبير سرى كثير المدن والقرى عجيب الخصائص والرخا به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهة وبه جزائر عدة مثل الأندلس الفاضلة العجيبة وتاهرت الطيبة النزيهة وطنجة البلدة البعيدة وسجلماسة المختارة الفريدة .. أهلها فى جهاد دائم ثم الغنى فيه سالم ولهم أيضا فى الخير رغبة وللسلطان عدل ونظر وحسبه متصل بالبحر خير جار وخير قوم لكل سائر ومار قد غاب فى الزيتون مدنه وبالتين والكرمات أرضه يجرى خلالها الأنهار ويملأ غيطانها الأشجار .. »(٧٧) .

---

(٧٥) العبر جـ٦ ص١٠٤ .

(٧٦) وصف افريقية ص٢٧ .

(٧٧) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص٢١٥ ، ٢١٦ .

ويقول المقدسى عن القيروان واصفا ولسكانها مادحا : « القـيروان مصر الاقليم بهى عظيم حسن الأخباز جيد اللحوم قد جمع أضـداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم مع علم كثير ورخص عجيب و « هى فرضة المغربين ومتجر البحرين لاترى أكثر من مدنها ولا أرفق من أهلها .. مع ألفة عجيبة لا شغب بينهم ولا عصبية لا جرم أنهم على نور من ربهم قد أقبلوا على مايعنيهم وارتفع الغل من قلوبهم فهى مفخر المغرب ومركز السلطان وأحد الأركان أرفق من نيسابور وأكبر من دمشق وأجل من أصبهان .. »[٧٨] .

وعن برقة وأهلها يقول المقدسى : « برقة قصبة جليلة عامرة نفيسة كثيرة الفواكه والخيرات والأعسال مع يسار وهى ثغر أحاط بها جبال عامرة ذات مزارع .. قد أحاط بها تربة حمراء وهى على جادة مصر .. يحسنون الى الغرباء أهل خير وصلاح وأقل انقلاب من غيرهم .. »[٧٩]

وعن تاهرت يقول: « تاهرت .. قد أحدق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغلبت فى البساتين ونبعت حولها الأعين وجل بها الاقليم وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب يفضلونها على دمشق وأخطأوا .. هو بلد كبير كثير الخير رحب رفق طيب رشيق الأسواق غزير الماء جيد الأهل قديم الوضع محكم الرصف عجيب الوصف .. »[٨٠] .

و « سجلماسة قصبة جليلة .. وسطها حصن يسمى العسكر فيـه الجامع ودار الامارة » صحيحة الهواء كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والخيرات كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد ومع ذلك فهى « ثغر فاضل وهم أهل سنة وقوم جياد بها علماء وعقلاء »[٨١] .

---

(٧٨) المصدر السابق ص٢٢٤ ، ٢٢٥ .
(٧٩) المصدر نفسه ص٢٢٤ .
(٨٠) نفسـه ص ٢٢٨ .
(٨١) نفسـه ص ٢٣١ .

وجاء فى كتاب آثار الأول فى ترتيب الدول فى معرض حديثه عن أخلاق البربر وما يتصفون به : و « البربر فيهم الصبر على الشقاء . والاقدام على الموت والحروب ... وتأليفهم بالمواعظ والخطب والانقياد لمشايخهم ولكبرائهم وتؤثر فيهم النواميس غاية التأثير . وهم خفاف على الخيل خفاف فى الجرى ومنهم رجالة يلحقون بالخيل .. ويعظمون شيوخهم وفيهم قبيلة تعظم النساء وتحكمها وتنسب الأولاد اليهن وينتقب الرجال وتسفر النساء فى الغالب وهى قبيلة مسوفة وبالجملة فأهل البلاد الباردة أشجع من أهل البلاد الحارة تلزز أبدانهم واكتناز أعضائهم وقوتهم الا أن أهل البلاد أخف وأرشق وربما كانوا أركب وأهل الجبال اشجع واصبح من اهل السهل وكذلك أهل المشرق أشجع من أهل المغرب وأهل الشمال اشجع من أهل الجنوب والوسط وسط ... » قال أهل الفراسة : من صفة الشجاع أن يكون متلزز الأعضاء قوى العصب شديد اللحم قائم الشعر سبطه كأنه ابر مفروزة عريض الصدر غليظ العنق جهورى الصوت أخمص البطن وهذه الصفات مأخوذة من الأسد »[٨٢]

و « البربرى عميق العاطفة الدينية يأخذ الدين مأخذ الجد الصارم ويوغل فيه بغير رفق وهو شديد الاعتقاد كثير التصديق بما وراء الطبيعة ولايفطن من فوره الى الجوانب الفكاهية فى الأشياء ولايدرك متناقضاتها وانما يكتفى بالايمان الشديد ومن ثم فرط احترامه لرجال الدين وسهولة انقياده لهم ... »[٨٣] والحيوية الجنسية هى المميز الرئيسى للبربر فهم يظهرون صفات دائمة ومستمرة باعثة على الدهشة وهى السبب فى ازدياد عددهم رغم الاضطهاد الذى حاق بهم .

والبربرى يصبر ويثابر وقد يبدو لك أنه استكان وهدأ ولكنه عاود الكفاح فى اصرار ومثابرة وقد يتسامح فى الطريقة التى يعيش بها مع الآخرين ولكنه مع الوقت نفسه يظل محافظا على طريقته هو وقوة احتماله مثيرة وله قوة مقاومة لا تجارى .

---

(٨٢) آثار الأول فى ترتيب الدول ص١٤٧ — ١٤٨ .

(٨٣) على أدهم : صقر قريش ص٥٥ — ٥٦ .

ويشهد الكتاب الأجانب فى كثير من مؤلفاتهم : أن البربر ذو شجاعة فائقة وذكاء والبربرى ان تخلى عن عزلته يكون شخصا مرحا لطيفا ولهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة منذ آلاف السنين يعتبرونها جزءا لا يتجزأ من كيانهم فلا يستعملون موائد الطعام ويأكلون بأيديهم ويسلمون وهم جلوس فهم يعتزون بعاداتهم القديمة »[٨٤] التى جبلوا عليها وألفوها وصارت جزءا من كيانهم لاينفصل ولا ينفصم • ويضيف الى ذلك جوستاف لوبون قوله : « والبربر صبر على العمل الشاق فلا يرتدون عنه ويثيرون مايملكون من الأراضى الضعيفة بجد ونشاط ويكتفون بما يمسك به الرقيق لاحتياجاتهم القليلة وهم ذو استعداد صناعى يكفى لصنع مايحتاجون اليه من مختلف الأدوات والنسائج والأسلحة والحلى ••• وهم يرسلون الى الخارج مايزيد من مصنوعاتهم ورأيت بين مايصنعون من الحلى ما لايقل دقة عما نراه فى مخازن أكثر الصناع انباريسيين أناقة •

ويستطرد لوبون قائلا : وقد « رأيت فى مجموعة المصنوعات التى أحضرها مسيودو ويفالفى من آسيا الوسطى أشياء مماثلة لما يصنعه البربر المعروفون بالقبائل • فمن المحتمل أن تكون قد اقتبست حينما كانت بلاد الهند ذات صلات بافريقية أيام دولة العرب »[٨٥] •

بيد أن فريقا آخر من قدامى المؤرخين من تناول أخلاق البربر بالذم والقدح ويصفها بالقبح وهذا الفريق فيما ذهب اليه — كما اعتقد — متحاملا على الحقيقة ومتجنيا كل التجنى على سكان شمال افريقية — بلا استثناء — وكأن لم يكن ثمة فرد واحد منهم يتصف بصفات حسنة وأخلاق كريمة وهذا — بلا مرية ولا ارتياب — افتراء واختلاق غير معقول وغير مقبول معا — على حد سواء •

---

(٨٤) فيليب رفلة : — الجزائر ص٤٤ •
(٨٥) لوبون : حضارة العرب ص٢٤٧ •

يقول ياقوت فى معجمه ويشاركه صاحب كتاب حقائق الأخبار عن دول البحار والبستانى فى دائرة معارفه ومن سار فى فلكهم : « البربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشا وأسرعهم الى الفتنة وأطوعهم لداعية الضلالة وأصغاهم لنمق الجهالة ولم تخل أجيالهم من الفتن وسفك الدماء قط ولهم أحوال عجيبة واصطلاحات غريبة وقد حسن لهم الشيطان الغوايات وزين لهم الضلالات حتى صارت طبائعهم الى الباطل مائلة وغرائزهم ضد الحق حائلة فكم من ادعى فيهم النبوة فقبلوا وكم من زاعم فيهم أنه المهدى الموعود به فأجابوا دعوته ولمذهبه انتحلوا وكم ادعى فيهم مذهب الخوارج فالى مذهبه بعد الاسلام انتقلوا ثم سفكوا الدماء المحرمة واستباحوا المنكرات ونهبوا الأموال وارتكبوا الفواحش حتى حكى عنهم فى ذلك أمور يمجها السمع وتكرهها النفس وهم يظنونها مبالغة فى اكرام ضيوفهم . على أنه مما يثير الدهشة والغرابة ويبعث على الاشمئزاز أنهم يختلقون أحاديث وينسبونها الى الرسول الكريم للاستدلال بها على آرائهم الباطلة فيقولون : « ويروى عن النبى أنه قال : ما تحت أديم السماء ولا على الأرض خلق شر من البربر » ولأن أتصدق بسوطى فى سبيل الله أحب الى أن أعتق رقبة بربرى » وينسب الى أحد المغاربة فى هجاء البربر قوله : —

رأيت آدم فى نومى فقلت له ... أبا البرية ان الناس قد حكموا
ان البرابر نسل منك قال اذا ... حواء طالقة ان كان ملزعموا(٨٦)

ويشارك هذا الفريق فى تجنيه وافترائه على البربر فى تعميمهم تلك الصفات السيئة على جموع البربر بلا استثناء يذكر بما لم يأت الله به من سلطان فيتفق معهم المسعودى فيما اليه ذهبوا .

يقول المسعودى : — أما المغرب فيقسى القلب ويوحش الطبع ويطيش

---

(٨٦) ياقوت الحوى : معجم البلدان جـ ا تحت مادة بربر ، حقائق الأخبار الدمشقى ص٢٧٣ ، دائرة البستانى جـ٥ ص٢٨ .

بالنسب ويذهب بالرحمة ويكسب الشجاعة ويقشع المضاعة وفى أهله غدر ولهم خبث ومكر ، ديارهم مختلفة وهممهم غير مؤتلفة وبديارهم آخر الزمان نبأ عظيم وخطب جسيم من أمر يظهر وأحوال تبهر »[٨٧] .

وللرد على هذه الافتراءات نقول : أن أريد بلفظ البربر الوارد فى قول هذا الفريق الجنس فهذا غير صحيح فالكلمة « بربر » ليست كلمة جنسية تدل على جنس انما أطلقها عليها غيرهم وقد سماهم الاغريق والمصريون القدماء « الليبيون »[٨٨] وفى الوقت نفسه فالتسمية بالبربر لا علاقة لها بالجنس وانما علاقتها باللغة — كما يرى فريق آخر من المؤرخين — فلما كانت لغة السكان الأصليين غير عربية أصبحت فى نظر العرب رطانة أو عجم — أو بربرة وهى اصطلاحات استعملها العرب هنا وهناك وكانت كلمة البربر من نصيب السكان فى الشمال الافريقى[٨٩] على أنه يمكن التوفيق بين من يتناول أخلاق البربر بالثناء والمدح ومن يتناولها بالهجاء والقدح ذلك أن الفريق الذى تناول أخلاقهم بالمدح عندما أن أسلموا وحسن اسلامهم وعمر الايمان قلوبهم وملك عليهم جوارحهم ووجدانهم وسرى فيهم مسرى الروح فى الجسد والدم فى العروق فانعكس ذلك كله عليهم جميعا قولا وعملا ذلك أن ما انبنى على خير فهو خير ولا غرو فان الدين الاسلامى يتمثل فيه كل المبادىء السامية والتعاليم الراقية والمثل العليا النبيلة والقيم الرفيعة ولا ريب فالتمسك به فيه عزة البشرية وسعادتها فى الدارين فهو صلاح البلاد وخير العباد أما وجهة نظر الفريق الاخر الذى تناول أخلاق البربر بالهجاء والقدح فمرد ذلك الى الحالة التى كان عليها البربر قبل أن يروا نور الايمان وماكانت عليه أخلاقهم قبل أن تصفو روحهم وتتخلص من شوائب الدنايا والرزايا باعتناقهم الاسلام .

---

(٨٧) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٦٢ .

(٨٨) فيليب رغلة : الجزائر ص١٩٢ .

(٨٩) د/أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جـ٤ ص١٠٨ .

وبالاضافة الى ذلك فلا تخلو أمة من الأمم أو دولة من الدول بل كل أسرة من الأسر من وجود نقص في أخلاقها أو عيب في سلوكها وتصرفاتها ولا غرو - فالكمال لله وحده عز وجل على أنه ليس ببعيد أن يكون وجهة نظر هذا الفريق في أخلاق البربر مرده الى اعتبارات مذهبية أو طائفية أو شخصية أو غيرها من الاعتبارات .

وفي اطار هذا الصدد أحسن المقدسي صنعا وقولا ذلك أنه بعد أن تحدث عن صفة المغرب وأقاليم وصفات أهله يختم قوله بعبارات لن يمحوها الزمن مادام الحمام يغرد ولأريب فهي نابعة من قلب مملوء بالصدق يتسم بالتجرد وعدم التحيز لهذا أو لذاك يدل على شعور صادق واحساس مرهف يقول المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : « وانما تركنا ماذكره من قبلنا في تصانيفهم ومن مفاخر كتابنا الاعراض عما ذكره غيرنا وأوحش شيء في كتبهم ضد ما ذكرنا ... واذا نظرنا في كتابنا وجدته تسبح وحده يتيما في نظمه ولو وجدنا رخصة في ترك جمع هذا الأصل مما اشتغلنا به ولكن لما بلغنا الله تعالى أقاصي الاسلام وأرانا أسبابه وألهمنا قسمته[٩٠] وجب أن ننهى ذلك الى كافة المسلمين ألا ترى الى قوله تعالى : « قل سيروا في الأرض » « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم »[٩١] وفيما ذكرناه عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر .. »[٩٢] .

وبالاضافة الى ذلك يقول لوبون : « وانتهى العلماء الذين بحثوا في أمر البربر الى نتائج متناقضة كثيرا ويمكن التوفيق بين هذه النتائج المتناقضة فيصح أن نقول ان البربر الذين تباينت فروعهم قد تباينت طبائعهم وأن أخلاقهم تختلف باختلاف ظروف وطرق حياتهم وما يقال

---

(٩٠) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص٢٤١ .
(٩١) سور محمد آية ١٠
(٩٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٢٤١ .

عن الطوارق لا يقال مثله عن سكان الجبل من البربر ... »[٩٣] وقد تعد روح البربر قريبة جدا من روح العرب على أن يقاسى حضريو أولئك وبدويوهم بحضريى هؤلاء وبدوييهم ولطرق الحياة تأثير كبير فى أخلاق جميع الأمم فاذا تماثلت طرق حياة الأمم تماثلت هذه الأمم فى التفكير والسير فى الغالب. والبربرى الحضرى كالعربى الحضرى جاد على العمل صبور وحازم ماهر والبربرى البدوى كالعربى البدوى طليق محراب فنوع خفيف طواق للمشاق ختار للأعداء ... واشتهر البربر قبل الفتح العربى بطويل زمن بأنهم ممن لايوثق بكلامهم وقد كان عددهم كثيرا فى جيوش قرطاجة فأوجبوا اشـــتهار الحروب اليونانية ... »[٩٤]

ولدراسة طبائع البربر المعروفين بالقبائل وعاداتهم التى ثبتت مع تعاقب الفاتحين أهمية خاصة فنتشتمل كل قرية بربرية على أسر كثيرة مؤلفة من أناس منحدرين من أصل واحد ومن أناس انضموا اليهم بالولاء وتعد واحدة من تلك الأسر وهبة سياسية شرعية قادرة على التملك والبيـــع والشراء وتتألف القبيلة من اجتماع عدة قرى والقرية لا القبيلة هى عنوان الوحدة السياسية البربرية خلافا لما هو عند العرب والقرية البربرية هى جمهورية صغيرة مستقلة يدير شئونها رئيس منتخب يسمونه الأمـــين وأهم وظائفه أن يرأس جمعية البالغين من أهل قريته وتتمتع هذه الجمعية بالسلطة الشرعية والقضائية وتقرر شئون السلم والحرب.

وساطة أمين القرية مفيدة جدا والوكيل هو الذى يراقبه والوكيل هو الذى يشكوه الى تلك الجمعية اذا أتى عملا يستحق اللوم والتعنيف ومن ذلك نرى أن الاستقلال البلدى الذى يحلم به بعض الاشتراكيين قائم عند البربر الذين حرموا بسببه تأليف أمة فى كل زمن .

---

(٩٣) لوبون حضـــارة العرب ص٢٤٩ .

(٩٤) حضارة العرب ص٢٥٠ — ٢٥١ .

والتملك أمر فردى عند البربر ولكن للاسرة البربرية والقبيلة البربرية أملاكها المماثلة لأملاك بلدياتنا — على حد قول لوبون — والأسرة البربرية هى الوارثة حين لايكون للمورث ورثة أو حين يكون ورثته بعيدين .

وقانون العقوبات عند البربر بسيط — ولايعرف البربر أمر السجون وتندر عندهم الجرائم ولاسيما السرقة ويعيش البربر فى غير معزل عن عشيرته فيخشى معبة الاجرام ويرى للرأى العام سلطان عظيم فى تلك الجمهوريات البربرية التى يعرف فيها كل واحد من أفرادها .

ويقتصر البربرى على زوجة واحدة ولا تتمتع المرأة البربرية بأكثر مما تتمتع به الأوروبيات فى الحقوق وان كانت فى وصاية أقل مما هن فيه والمرأة البربرية على جانب كبير من العفة وهى تحارب بجانب زوجها أحيانا وخلد أوميرس ذكرها حين تغنى بخمر تلك الملة والنسوة المرجلات اللائى فتحن بلاد لوبية وبعض آسيا الصغرى ومن النساء البربريات من جلسن على عرش الملك ويدل هذا الأمر الذى ينفر منه العرب كثيرا على تباينهما فى النظر الى بعض الشئون »(٩٥) .

أما عن صفات البربر فى أحوالهم المعيشية فقد اتصف البربر سواء أكانوا بدوا أم برانس ببعدة صفات أجملها ابن خلدون بقوله : « يتخذون من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر والشعر والوبر ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة لايجاوزون فيها الريف الى الصحراء والقفار الأطلس ومكاسبهم الشاه والبقر والخيل فى الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم شأنهم شأن العرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاظعان فى نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة ولباسهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة

---

(٩٥) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٢٤٧ — ٢٤٩ .

ويفرغون عليهم البرانس الكحل ورؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق »(٩٦) .

ويمكننا أن نستنتج مما ذكره ابن خلدون من صفات البربر المعيشية النقاط التالية :

(أ) أن البربر كانوا يتخذون مساكنهم بحسب المكان الذى ينزلون فيه فحيث الاستقرار يكون البناء بالحجارة والطين وهؤلاء أهل المدن .

(ب) طبقة التجار وكانت تجارتها تعتمد على الشاء والبقر وما تنتجه هذه السائمة من لحوم وأصواف وألبان يستخدمونها فى حياتهم .

(جـ) الطبقات العاملة فى الأرض حيث تقوم بزراعة الأرض والاشراف على تربية الطيور وغيرها من المهن والحرف .

(د) على أن ثمة طبقة أخرى كانت تعيش بمنطق القوة أى بالاغارة على ما جاورها من الأغنياء وذلك بحد السيف للحصول على ماتريد .

(هـ) ونظرا لتوفر الماشية والأغنام نجد أن أغلب ملابسهم صوفية خاصة فى المناطق الجبلية والصحراوية حيث يشتد البرد وهو مما يحصلون عليه من أوبار ماشيتهم وأغنامهم »(٩٧) .

أما عن المزايا التى تتفرد بها بلاد البربر عن جزيرة العرب فهى جبالها الشاهقة ومسالكها الوعرة وكثرة وديانها الحصينة مما يهيىء للمدافعين عنها فرصا كثيرة للايقاع بالمغير حين تهب كل قبيلة للذود عن حماها وكان جمهور البربر قبائل بدوية يعيش أكثرها على الرعى فى هضبة الشطوط وفى الأطلس الصحراوية والكبرى ومن باب أولى فى الوديان الكثيرة التى تنحدر من هذه الجبال الى الصحراء والتى تكثر

---

(٩٦) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص٨٩ .

(٩٧) راجع د/حسين على حسن : تاريخ المغرب العربى ص٢٨٨ .

فيها الواحات وبسبب ضيق السهل الساحلي الخصيب وصعوبة الاتصال بين أجزاء البلاد لم تقم فيها دولة كبيرة تجمع شتاتها فترة طويلة من الزمن كما حدث فى مصر وانما قامت فيها فى أكثر حقب التاريخ دويلات صغيرة متنافسة شأنها فى ذلك شأن بلاد اليونان حيث قامت المدن الحكومية المتفرقة قبل أن تخضع تلك البلاد للمقدونيين (الاغريق) ثم للرومان .

وقد انبنى على هذا التشتت السياسى الذى أملته طبيعة البلاد أن كان السهل الساحلى محط أنظار المستعمرين فى مختلف العصور وكان بعضهم يتوغل الى الداخل عن طريق وديان الأنهار ولكن هذه الطبيعة بذاتها حين أطمعت المستعمرين فى البلاد طوعت لأهلها وسبل المقاومة حتى استطاعوا فاذا عجزوا لجأوا الى قنن الجبال وتحصنوا بالصحراء يتربصون بالعدو حتى اذا لاحت « لهم » الفرصة خرجوا من كهوف الجبال ومخابئها العديدة بما يتمثل فى جبل أوراس والقصور على الحدود (٩٨) وأهلكوا الحرث والنسل يريدون بذلك مطاردة الأجنبى المعتدى والمستعمر الدخيل البغيض حرصا منهم على الحرية والأمن والاستقرار .

(٩٨) محمد أحمد حسونة : الجغرافية الاسلامية للتاريخية ص٥٤ — ٥٦

ثبت بأهم مصادر ومراجع البحث

أولا : المصـــادر :

ابن الأثير (أبو الحسن بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى ٦٢٩هـ ــ ١٢٣٣م)

الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، م الأزهرية سنة ١٣٥١هـ م المنيرية سنة ١٣٥٧هـ ، ط الحلبى سنة ١٣٠٣هـ .

الباجى (أبو عبيد الله محمد)

الخلاصة النقية فى أمراء افريقية . تونس ، م الدولة التونسية .

البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٧هـ)

المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب . بغداد ، م المثنى سنة ١٩١١م

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربى ت ٨٠٨هـ)

العبر وديوان المبتدأ والخبر . القاهرة ، م الأميرية ، سنة ١٢٨٤هـ

الدباغ (عبد الرحمن محمد بن عبد الله الأنصارى ت ٦٩٦هـ)

معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان . القـــاهرة ، م الخانجى ســـنة ١٩٦٨ .

الدمشقى : (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى طالب ت ٥٢٧هـ)

نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ط ليبزج سنة ١٨٢٠م .

ابن أبى دينار (أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى ت ١١١٠هـ) .

المؤنس فى أخبار افريقية وتونس تحقيق محمد شمام . تونس ، م النهضـــة ، د ســـنة .

السلاوى (أحمد بن خالد ت ١٣١٥هـ)

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى • القـاهرة ، دار الكتاب العربى سـنة ١٣١٢هـ •

ابن عذارى (أبو عبد الله محمد المراكشى ت أواخر القرن السابع الهجرى)

البيان المغرب تحقيق بروفنسال • بيروت ، دار الثقافة

العمرى (شهاب الدين بن يحيى المعروف بابن فضل الله الكاتب الدمشقى)

وصف افريقية والمغرب والأندلس تحقيق حسـن عبد الوهاب ، تونس ، م النهضة د ـ ت •

الفيروز آبادى (ت ٨١٧هـ)

القاموس المحيط ط٢ القاهرة ، م الحلبي سنة ١٩٥٢م •

القيروانى (أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم ت فى القرن الخامس الهجرى)

تاريخ افريقية والمغرب تحقيق المنجى الكعبى • تونس ، نشر مطبعة الوسط سنة ١٩٦٧ •

المالكى (أبو بكر عبد الله ت ٤٣٨هـ)

رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية تحقيق حسين مؤنس ، م النهضة سنة ١٩٥١ •

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على ت ٣٤٦هـ ـ ٩٥٦م)

مروج الذهب ومعادن الجوهر ط٣ القاهرة سنة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨ •

المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى المعروف بالبشارى)

أحسن التقاسيم ط٢ طبعة بريل ، ليدن سنة ١٩٠٩

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى البغدادى ت ٦٢٦هـ)

معجم البدان • القاهرة ، م السعادة سـنة ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م

ط بيروت دار صادر سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٥٧م عشرة أجزاء •

ثانيا : المراجع :

ابراهيم أحمد العدوى :

موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى • القاهرة ، دار الكاتب العربى ، سلسلة أعلام العرب أغسطس ١٩٦٧ العدد (٩٨) •

أحمد شـــلبى :

دراسات فى التاريخ الأسلامى والحضارة الاســـلامية • القاهرة ، م النهضة سنة ١٩٦٠م •

أحمد صـــفر :

مدنية المغرب العربى فى التاريخ • تونس ، دار النشر ، سنة ١٩٥٩م

أرنولد السير توماس :

الدعوة الى الاسلام ترجمة وتعليق د/حسن ابراهيم ، عبد المجيد عابدين ط٢ القاهرة ، م النهضة سنة ١٩٥٧ •

البســـتانى (بطرس) :

دائرة معارف البســـتانى ط بيروت ، دار المعرفة سنة ١٨٨٧م مجلد

خسن أحمد محمود :

ليبيا بين الماضى والحاضر • القاهرة ، م النهضـــة • الاسلام والثقافة العربية فى افريقية • القاهرة ، ط ٢ ١٩٦٣ •

حسن على حسن :

تاريخ المغرب العربى ط١ القاهرة ، م الشباب سنة ١٩٧٧

حسين مؤنس :
فتح العرب للمغرب . القاهرة ، م الآداب سنة ١٩٤٧ .

الزاوى (الطاهر احمد الطرابلسى)
تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ط٢ القاهرة ، دار المعارف سنة ١٩٦٣ .

عبد الحميد العبادى :
المجمل فى تاريخ الأندلس ط٢ القاهرة ، دار القلم (سلسلة المكتبة التاريخية) .

على أدهم :
صقر قريش سلسلة كتاب الهلال عدد ١٦٣ أكتوبر سنة ١٩٦٤ .

فنسنك ، هو تسما وآخرون :
دائرة المعارف الاسلامية ترجمة محمد ثابت الفندى ط١ القاهرة ١٩٣٣ .

فيليب رفلة :
الجزائر مع تعريف ببلاد المغرب ط١ القاهرة ، م الصباح سنة ١٩٥٦م .

لوبون (جوستاف) :
حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر . القاهرة ، دار المعارف سنة ١٩٥٨ .

محمد أحمد حسونة :
الجغرافية الاسلامية التاريخية . القاهرة ، لجنة البيان العربى .

محمد عبد الله عنان :

دولة الإسلام فى الأندلس ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ .

محمد على دبوز :

تاريخ المغرب الكبير ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٦٣ .

محمود اسماعيل :

المالكية والشيعة بافريقية ابان قيام الدولة الفاطمية بحث نشر فى المجلة التاريخية المصرية مجلد ٢٣ سنة ١٩٧٦م

نقولا زيادة :

برقة الدولة العربية الثامنة ط بيروت ، دار العلم للملايين سنة ١٩٥٠ م .